بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على رسول الله

## مادة: التاريخ الإسلامي، S:2

لا شك أن الفترة الزمنية المخصصة لتدريس المادة لا تكفي لسببر أغوار تاريخ أمة مترامية الأطراف تمدّدت لقرون على مجال جغرافي واسع شمل قارات العالم المكتشفة أنذك، وظلت تتّسع وتتوسّع حتى نهاية الدولة العثمانية في الربع الأول من القرن العشرين.

منذ بزوغ فجر الإسلام لم تتوقف أحداثه الفاصلة وتقلباته العميقة -على مستوى البنيات الذهنية والثقافية والاجتماعية والسياسية- في قلب الجزيرة العربية، بل أودت بممالك الروم والفرس العريقة، وعمت السند والهند وشمال إفريقيا، ولم تنته بفتح قرطبة وطليطلة في أطراف القارة الأوربية خلال العقد الأخير من القرن الأول الهجري،

وعليه فإننا نظرا لتشعب الأحداث واتساع الزمان المدروس والمكان مقارنة بالوقت المخصص سنعتمد في تدريس المادة مقاربة منهجية منطلقها أن ما لا يدرك كله لا يترك جله، متوقفين عند بعض المحطات والأحداث المفصلية الهامة في تاريخ الإسلام منذ ظهوره، فقيام الدولة الاسلامية الأولى (ولعلنا نتوقف عندها لعامل الوقت) فالعهد الراشدي، ثم الأموي والعباسي، وصولا لعهد

العثمانيين أخيرا إن سمحت الفرصة بذلك، بعد أن نتحدث عن مفهوم التاريخ وأهميته الدينية والسياسية، وبداية عصر التدوين، ثم المدارس التاريخية الإسلامية وكيف تطورت من عهد الطبري إلى ابن خلدون .

## مفهوم التاريخ

يرى شمس الدين السخاوي في كتابه الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ أن مفهوم التاريخ في اللغة يشير إلى الوقت فيقال : أرّخ يؤرّخ الكتاب أي بين وقت كتابته. ويحيل في الاصطلاح إلى التعريف بالوقت الذي تضبط به الأحوال والوقائع المرتبطة بالإنسان[1]. ولعل تعريف ابن خلدون كان أكثر شمولية حين عرف التاريخ بأنه «خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال، مثل التوحش والتأنس، والعصبيات، وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال» (المقدمة ص57).

ويقول عنه في موضع آخر وهو يؤسس بذلك لما سيعرف لاحقا بفلسفة التاريخ: "التاريخ في ظاهره لا يزيد على إخبارٍ عن الأيام والدول، والسوابق من

---

[1]– شمس الدين السخاوي الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، مطبعة الترقي، دمشق 1949، ص 6-7.

القرون الأول، وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق"

ويتضـــح من هذا التعريف "أن المؤرخ الذي يهتم بتمحيص الأخبار، ونقد الوثائق والآثار، يكتب تاريخا نقدياً، والذي يستخرج من ذكر الأحداث الماضية عبرة تتم بها فائدة الاقتداء لمن يروم ذلك يكتب تاريخا أخلاقياً، وإذا اعتني بأخبار الدول وعلاقات بعضـــها ببعض للإفادة منها في تدبير الدولة كان تاريخا سياسياً، وإذا تجاوز كل ذلك إلى تعليل الوقائع، لمعرفة كيفية حدوثها، وأسباب نشوئها، كان يكتب تاريخا فلسفياً".

ولا شك أن التاريخ كعلم نشأ وترعرع في ظل الحضارة العربية الإسلامية وفي أحضـــان علم الحديث، وأن تعريفه تطور بعد ذلك تبعا للمنهجية التي اتبعها المؤرخون ودرجة اطلاعهم وسعة معرفتهم بالحياة السياسية والاجتماعية ودرجة ثقافتهم، وأن كلمة التاريخ "بدأت بمعنى التقويم والتوقيت في صـــدر الإســـلام، واحتفظت بهذا المعنى لفترة، ثم صارت تطلق على عملية التدوين التاريخي، وعلى حفظ الأخبار، بشكل متسلسل، متصل الزمن والموضوع، للدلالة على هذا النوع الجديد من التطور في الخبر، منذ منتصـــف القرن الثاني الهجري" وهذا ما يؤكده المؤرخ المغربي المعاصـــر عبد الله العروي قائلا: "إن تأليف التاريخ الإســـلامي من إبداع العرب لقد فشـــلت محاولات العثور على مؤثرات خارجية – يونانية أو فارسية– على غرار ما كشف عنه المنقبون من مؤثرات أجنبية في الفلسفة وعلم الكلام، ليس التاريخ الإســـلامي نقلا أو اقتباســـا أو استعارة من الغير، إن كلمة

تاريخ كلمة عربية والكلمة الأجنبية "أسطوريا" التي كان من الممكن استعارتها، استعملت فعلا، لكن في معنى آخر؛ للتعبير عن القصص الخيالية والميثيولجية التي لا تخضع لقوانين المراقبة والفحص والتدقيق كحوادث التاريخ القريبة أو البعيدة"

ولكن كيف نشأ التاريخ في ظل الحضارة العربية الإسلامية وما هي أهميته الدينية والسياسية؟

## المدارس التاريخية الاسلامية وبداية عصر التدوين

بعد أن كانت الرواية التاريخية تنقل شفاهياً في الغالب، شأنها شأن غيرها من السُنن، دخلت حيّز التدوين مبكّرا، ولكن إلى جانب غيرها من السُنن والآداب، في مدوّنات كان يكتبها بعض الصحابة لأنفسهم خاصّة لغرض الحفظ، وبعد اتساع عملية التدوين توزّعت اهتمامات علماء التابعين على أكثر من واحد من أنواع العلوم، فتفرغ أكثرهم لجمع الحديث بشكل عامّ وروايته، وتخصّص بعضهم بأحاديث السُنن والأحكام التي هي موضع اهتمام الفقهاء بالدرجة الأَولى، فيما انصبّت عناية آخرين على ما يتّصل بالسيرة النبوية بشكل عامّ، وبالمغازي منها بشكل خاصّ، فظهرت مدرسة بالمدينة كان من روادها عروة بن الزبير (ت 94هـ 712م)، وشرحبيل بن سعد (ت 123هـ 740م) وعاصم بن عمر بن قتادة (ت 120هـ 737م). وأخرى بالكوفة كان من روادها بن الكلبي، والهيثم بن عدي بن عبد الرحمن. وثالثة بالبصرة كان من روادها علي بن محمد بن عبد الله المعروف بالمدائني وغيره،

أ- **مدرسة المدينة**: "كانت أول المدارس نشوءا ولها إسهامات بالغة الأهمية، حيث أرخت لحوادث صدر الإسلام، خاصة المغازي وتاريخ الخلفاء الراشدين. وأرست منهجها القائم على نقد الروايات وفق منهج الإسناد المستخدم في علم الحديث، ويلاحظ إقلالها من الإسرائيليات أيضا، وكان مؤرخوها على العموم يتحرون الدقة في نقل الرواية فيقدمون رواية شاهد العيان على السماع فقط، ويقدمون السماع على النقل من الصحائف، ويمكن ملاحظة هذا المنهج بوضوح عند رواد هذه المدرسة من أمثال عروة ابن الزبير، والزهري وغيرهم

ب- **مدرسة العراق** كانت المركز الثاني في مجال الدراسات التاريخية الاسلامية الأولى، ونظرا لكون التجمع القبلي الأكبر في هذا الحيز الجغرافي، فقد ظهرت فئة من الاخباريين اهتمت بدراسة الأنساب، وأخبار القبائل العربية، إلى جانب الدراسات لأدبية والدينية، حيث نلاحظ اتساعا في مجال الكتابة التاريخية عند المدائني من أهل البصرة، وابن الكلبي من أهل الكوفة، ثم أصبحت بغداد بعد ذلك مركز الثقل بعد قيام الدولة العباسية، واتسع أفق هذه المدرسة فصارت تعتني بشتى مجالات الكتابة التاريخية، ومن أبرز من يمثل هذه المدرسة عوانة بن الحكم، ومحمد بن السائب الكلبي

ج- **مدرسة الشام**: ربما كان دور هذه المدرسة ثانويا إلا أن آثارها تأتي في صدارة التدوين التاريخي في صدر الإسلام، حيث استقدم معاوية بن أبي سفيان عبيد بن شرية الجرهمي وهو من أصل يمني أدرك النبي ﷺ ولم يسمع

منه، وقد اشتهر برواية الأخبار المتقدمة، فاستقدمه معاوية من أجل مسامرته وكان يحدثه عن أخبار الأمم المتقدمة وملوك اليمن وغيرهم من ملوك الأعاجم ثم أمره بتدوين مروياته تحت عنوان: كتاب[2] الأخبار وملوك الماضين" [3]

وقد "سارت الكتابات التاريخية عند المسلمين وفق أنماط متصاعدة تتفاوت في عمقها وسرعتها وتأثرها بالإقليم والعصر.

ويمكن تتبع ذلك ابتداء من القرن الثاني للهجرة، مع بعض رواة التاريخ والمغازي والسيرة، من أمثال "وهب بن منبه" (ت 114هـ732م. وعروة بن الزبير (ت 94هـ 712م، وعاصم بن عُمر بن قتادة (ت 120هـ. 737م).

فقد هيأ هؤلاء الأرضية اللازمة لمن جاء بعدهم كالزهري والواقدي وابن اسحاق. فالزهري (ت 124هـ 741م) هو الذي توسع في جمع الروايات وتمحيصها واستخدام عبارة "السيرة" بدلاً من المغازي. حتى إذا وصلنا إلى ابن اسحق (ت 151هـ 761م) نجده أمضى شوطاً آخر في الجمع بين الروايات التاريخية والأحاديث الشريفة والشعر والقصص. وقد وصلتنا السيرة التي كتبها منقحة على يد ابن هشام (ت 218هـ. 813م)

---

[2]- طبع الكتاب المذكور في مدينة حيدر أباد بالهند 1927 مع كتاب التيجان في ملوك حمير (ص 311-492) لهشام بن محمد الكلبي تحت عنوان "أخبار عبيد ابن شرية الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها"

[3]- للمزيد يرجع إلى أطروحة ماجستير من جامعة الجزائر لسنة 2000-2001 وهي بعنوان "دور مدرسة المدينة في الكتابة التاريخية من خلال آثار أبرز مؤرخيها حتى مطلع القرن 2هـ 8م ص40 وما بعدها)

ومن أعلام تلك المرحلة "الواقدي" (ت 207هـ) في كتابه المغازي. (المدائني 225هـ) (وابن الكلبي 204هـ)

وقبل أن نغادر القرن الثالث للهجرة نجد "البلاذري (ت 279هـ)" صاحب: فتوح البلدان، وأنساب الأشراف. ومعاصره اليعقوبي (ت 284هـ) صاحب كتاب "البلدان" الذي يعتبر أول كتاب في الجغرافية التاريخية.

وفي بداية القرن الرابع الهجري نجد الطبري (ت 310هـ) الذي تكتمل لديه مرحلة نضوج البدايات والتكوين للكتابة التاريخية[4].

ويمكن أن نلاحظ تفاوت مدارس الكتابة التاريخية في مراحلها عبر القرون الثلاثة، وعبر الأماكن المختلفة في المدينة والكوفة والبصرة وبقية الأمصار وصولاً إلى القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي حيث "تكون الكتابة في علم التاريخ قد بلغت أوجها مع ابن خلدون الذي كان مجددا في علم التاريخ وأخذ على من سبقه من المؤرخين اعتناءهم بصحة السند فقط دون النظر في المتن والتفطن للحوادث وإمكانية حدوثها ومدى مطابقة وقوعها للعقل والمنطق.

### أهميته الدينية والسياسية

لم تكن للعرب قبل الإسلام مراجع تاريخية مدونة معروفة، وخلال القرن الثاني الهجري وجد المسلمون أنفسهم بحاجة ماسة للنظر في تنظيم زمنهم،

[4]- الباحث محمد قجة تطور المنهج العلمي في الكتابات التاريخية عند العرب

وتأريخ حقبهم، وكان لقيام الخليفة عمر بن الخطاب بوضع التاريخ الهجري،[5] أثر كبير في نشـــأة الفكرة التاريخية عندهم، إلا أنها لم تتحول إلى واقع ماثل إلا بعد أن شعروا بأهمية السيرة النبوية وحاجتهم إليها في حياتهم، فشرعوا في تدوينها بعد شروعهم في تدوين الحديث النبوي، إذ هما معا يمثلان السنة التي تشكل مصدر التشـــريع الثاني بعد القرآن الكريم، ومن ثم كان تدوين الســـيرة النبوية الباعث المباشر والأهم من بين دوافع أخرى للكتابة التاريخية عند المسلمين ونقطة انطلاق لها، ومع اتساع رقعة الدولة الاسلامية بعد الفتوحات وانضمام مناطق وشعوب من حضارات وديانات أخرى برزت مشاكل حول سياسة الدولة وقضايا السلطة والأمة والأرض، وقضايا الضريبة، والخراج، والزكاة، والجزية، وبيت المال والإنفاق، والإدارة وتنظيمها وكل ذلك يتطلب توثيقا وتشـــريعا وبالتالي العودة إلى التاريخ للإفادة منه. (وجيه كوثراني، تاريخ التاريخ ص48)

ومن هنا تتضح الأهمية الدينية والسياسية للتاريخ عند المسلمين وأن تدوينهم له مر بثلاث مراحل أســـاســـية، تمثلت الأولى منهما في تثبيت الحقوق وتحديد المسؤوليات، واتخذت الثانية طابعا أخلاقيا لكبح جماح الكذب والافتراء لا سيما في مجال الحديث النبوي، فيما تركزت الثالثة حول شـــؤون الإدارة والحكم وتحديد مسار الخطاب السياسي للدولة.

---

[5]– المشـهور أن عمر بن الخطاب كان أول من أرخ التاريخ الهجري في الإسـلام كما أخرج الحاكم عن الشـعبي أن أبا موســى كتب إلى عمر: إنه يأتينا منك كتب ليس لها تاريخ... فجمع عمر الناس فقال بعضـــهم: أرِّخ بالمبعث وبعضهم أرِّخ بالهجرة فقال عمر: الهجرة فرقت بين الحق والباطل فأرخوا بها.

# البعثة النبوية وبداية الدعوة

أما الحديث عن التاريخ الإسـلامي كأحداث ووقائع فيبدأ لا محالة من بعثة النبي ﷺ ودعوته التي غيرت مجرى التاريخ، بعد انطلاقها من مكة والمدينة في قلب الجزيرة العربية. ولو كان ذلك الحديث بإيجاز لأنكم تدرسـون تلك المرحلة ضمن مادة السيرة.

ولد النبي ﷺ صبيحة يوم الاثنين الثامن أو الثاني عشر من ربيع الأول عام الفيل الموافق للعشرين أو الثاني والعشرين من إبريل 570-571 م.

وحين بلغ أربعين سـنة نزل عليه جبريل عليه السـلام بالوحي وكان من أول ما نزل عليه به ﴿اقرأ باسـم ربك الذي خلق خلق الإنسـان من علق اقرأ وربك الأكرم﴾ ثم انقطع عنه أربعين يوما ونزل عليه بعد ذلك بـــ ﴿يأيها المدثر قم فأنذر﴾ فبدأت دعوته سرية وكان من أول من آمن به خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وأبو بكر الصديق الذي أسلم على يديه عثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الرحمن بن عوف، وسـعد بن أبي وقاص. ومن أوائل من أسـلموا في هذه المرحلة أيضـا: علي بن أبي طالب وزيد بن حارثة مولى رسـول الله ﷺ والزبير بن العوام، وبلال بن رباح، وأبو عبيدة عامر بن الجراح، وأبو سـلمة بن عبد الأسـد، والأرقم بن أبي الأرقم، وعامر وزوجته سمية وابنه عمار، وسـعيد بن زيد، وامرأته فاطمة بنت الخطاب، وخباب بن الأرت وغيرهم، حتى فشـى الإسلام بين أهل مكة وكانت الدعوة إذ ذلك لا تزال سرية.

ثم بدأت مرحلة الدعوة العلنية بعد نزول قوله الله تعالى ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ وقوله تعالى ﴿وأنذر عشيرة الاقربين﴾ وذلك بعد ثلاث سنوات من الدعوة السرية، وكانت هذه مرحلة ابتلاءٍ عام وشامل أوذي فيها النبي ﷺ وأصحابه أذى شديدا.

وحين رأت قريش عدم جدوائية الأذى سعوا للإغراء فبعثوا إليه عتبة بن ربيعة العبشمي الذي خاطبه قائلا: "يا ابن أخي إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون من أكثرنا مالا، وإن كنت تريد شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا..." وكان رد رسول الله ﷺ حاسما في كل مرة، وحين شكوه لعمه أبو طالب وكلمه في أمرهم أجابه ﷺ قائلا: والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما فعلبت.

ثم حاولوا تعجيزه حين رفض كل مطالبهم فقالوا يا محمد ﷺ إن كنت صادقا فأرنا آية نطلبها منك وهي: أن تشق لنا القمر فرقتين فأعطاه الله تلك المعجزة ولم يزدهم ذلك إلا عنادا وأذية له ﷺ ومن آمن معه.

فلما ضاقت مكة على المسلمين بإذاية قريش لهم، أشار عليهم ﷺ بالهجرة قائلا: إن بالحبشة ملكا لا يظلم أحدٌ عنده، فالحقوا به حتى يجعل الله فرجا ومخرجا مما أنتم فيه، فوقعت الهجرة الأولى إلى الحبشة في رجبٍ سنة خمسٍ من النبوة، والهجرة الثانية إليها أيضا في نفس السنة.

# الهجرة إلى المدينة وقيام الدولة الإسلامية الأولى

بعد ثلاث عشرة سنة من البعثة النبوية والدعوة في مكة أُذن للرسول ﷺ بالهجرة فخرج منها في السابع والعشرين من صفر من السنة الـــ 14 من بعثته، ووصل المدينة في الثاني عشر من ربيع الأول كما ذكر ابن إسحاق، وكانت تلك البداية الفعلية لقيام الدولة الإسلامية الأولى.

## أ- مرحلة التشكل:

ينقسم تاريخ الدولة الاسلامية الأولى لمرحلتين كما سنرى؛ أولاهما تبدأ بوصول المسلمين إلى يثرب حيث توفّر لهم المأوى وأقاموا الأحلاف وأبرموا المعاهدات، واستطاعوا تنظيم المجتمع بمختلف طوائفه، ثم مرحلة التوسع التي بدأت بعد ذلك بالترصد لقريش ثم الصدام معها حيث انطلقت السرايا والبعوث والغزوات بعد إرساء قواعد الدولة خلال المرحلة الأولى التي نسميها بمرحلة التشكل.

### يثرب قبل الهجرة

تقع المدينة على بعد ثلاثمائة ميل إلى الشمال من مكة بواد خصب تكثر فيه الآبار والينابيع مليء بالأشجار والزرع وواحات النخيل، كانت قبل البعثة تسمى بيثرب[6]، ويذكر المؤرخون أن العمالقة من العرب هم أول من سكنها، وظلوا بها حتى نزلها اليهود في القرن الثاني الميلادي قادمين من الشمال هربا من

[6] نسبة إلى يثرب بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام

اضطهاد الرومان، ثم نزحت إليهم قبائل الأوس والخزرج قادمة من الجنوب بعد حادثة سيل العرم، وهم الذين سيطروا على يثرب وأصبحوا سادتها بلا منازع، وكانوا وثنيين يحجون إلى مكة ويقدسون أصنامها، رغم وجود الديانتين النصرانية واليهودية، ولم يكن هذا التنوع الاثني والعقدي عامل استقرار خاصة بعد أن عمل اليهود على الوقيعة بين القبيلتين الكبيرتين (الأوس والخزرج) فدارت بينهما الدوائر ولم تنقطع بينهم الثارات إلا بعد مجيئ الإسلام، بل كان من شبه المستحيل إيقاف تلك الأيام والحروب التي أنهكت القبيلتين وأوهنت اليثربيين بشكل عام، وأضعفت نسيجهم المجتمعي بما تركت من الأحقاد والضغائن والثارات المتوارثة.

وفي هذه الظرفية الخاصة قدم النبي ﷺ لإرساء دعوته، وتأسيس دولته التي ستكون مطالبة بتحقيق الأمن والاستقرار وتنظيم الوضع الداخلي، مع ما يهددها من الأخطار الخارجية، وسنلاحظ أهمية ومتانة الأسس التي وضع لبناء دولته، بدءا بإقامة المؤسسة الدينية الأولى ممثلة في المسجد، وتنظيم العلاقات البينية للمسلمين أنفسهم وبين المسلمين وغيرهم من أهل المدينة ومن حولها، وإبرام الصحيفة بعد ذلك، فكانت الأسس الثلاثة التي أقيمت عليها الدولة الجديدة كالتالي:

***أولا بناء المسجد:***

من المعروف أن المسلمين خلال المرحلة المكية تعرضوا لكثير من المضايقة، واضطروا لعدم الجهر بأداء شعائرهم الدينية، ولم يتمكنوا من ممارستها بحرية إلا

بعد الهجرة إلى المدينة، والحقيقة أن الهجرة إلى المدينة لم تأت اعتباطا بل جاء اختيارها مناسبا في الزمان والمكان، فالمدينة من الناحية المكانية ذات أهمية اقتصادية لوقوعها على طرق القوافل التجارية، ولما بها من زراعة وواحات نخيل، ما يجعلها المكان الأنسب والأهم من الناحيتين الاقتصادية والاستراتيجية، أما من الناحية الزمانية أيضا فلم يقدم إليها النبي ﷺ إلا بعد التهيئة الدقيقة لذلك وخاصة بعد بيعة العقبة الأولى وإيفاد مصعب بن عمير إلى أهلها يدعوهم ويعلمهم دينهم، حيث أسلم على يده الكثير منهم، ثم بيعة العقبة الثانية، وفيها بايع الأوس والخزرج النبي ﷺ على السمع والطاعة والحماية، وعلى أن ينصروه إذا قدم إليهم، ويمنعونه مما يمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءهم.

وهنا أصبحت الأرضية مواتية لقدومه ﷺ فكان أولُ عمل يقوم به بناء المسجد ولا يخفى ما لهذا المرفق من أهمية وما اضطلع به من أدوار محورية، لم تنحصر في أداء الصلاة والمحافظة على الإيمان، ومبادئ الإسلام التي حرص النبي ﷺ على غرسها في نفوس أصحابه، بل كان نقطة لالتقاء المسلمين عامة، قوّت أواصرهم وأذابت الفوارق بينهم، ومدرسة تعلموا فيها كل أمور حياتهم الدنيوية والأخروية، وفي نفس الوقت مقرا للحكم والسياسة والقضاء، فكان لذلك حريا بالبدء به، وتمثلت الخطوة الثانية في المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار سبيلا لتوحيد الأمة وحسم بواعث الفرقة وإنهاء جميع الصراعات.

### ثانيا: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

من الواضح أن المكانة المرموقة للنبي ﷺ تعززت في هذه المرحلة بوجود أتباع أقوياء سمى المكيين منهم بالمهاجرين والمدنيين بالأنصار، ثم عمل على توحيدهم برابطة الإسلام الوثقى، وبدأ بإصلاح ما بين الأوس والخزرج، وأزال من نفوسهم ما كان فيها من رواسب عداوتهم القديمة، ثم وحد بينهم تحت اسم الأنصار وهم الذين آووه ونصروه وأيدوا دعوته، ثم اتجه إلى ربط المهاجرين والأنصار برباط الأخوة، فآخى بين المسلمين جميعا على الحق ونصرته ومواساة بعضهم لبعض، وعلى أن يتوارثوا بينهم بعد الموت، وهنا نلاحظ أن الرابطة الدينية أصبحت أقوى من رابطة النسب بحيث يرث المسلمُ المسلمَ ولو كان الوارث مهاجرا والموروث أنصاريا، ولا يرث الكافر المسلم ولو كانوا إخوة في النسب.

فكانت المؤاخاة الركيزةَ الثانية التي اعتمدها النبي ﷺ في سبيل إقامة مجتمعه الناشئ ودولته الإسلامية الجديدة، إذ لا يمكن الحديث عن دولة دون إيجاد مجتمع صَلب متماسك قوي، وهو ما هيئ له بإزاحة كل ما كان من حزازات الجاهلية، ونزاعاتها القبلية، وإبرام الصحيفة كوثيقة دستورية لأهل المدينة.

### ثالثا: الوثيقة الدستورية: (الصحيفة)

انهمك النبي ﷺ خلال الأشهر الأولى ضمن مرحلة الإعداد لبناء داخلي قوي في إعداد وثيقة بين المسلمين وغيرهم من مكونات المجتمع المدني، فأوجد نظاما جديدا يوحد أهل المدينة من خلال تحديد وتنظيم صيغة العلاقات بين

مختلف طوائفهم من مسلمين ويهود ومشركين فيما ينهم، وبينهم والسلطة التي أراد تأسيسها، كما جاء في الصحيفة.

ويمكن تقسيم مضامين الصحيفة إلى ثلاثة أقسام:

**الأول**: يحدد العلاقة بين المؤمنين حيث استطاع النبي ﷺ أن يوحد جميع المسلمين على اختلاف شعوبهم وقبائلهم، وأن يجعل منهم أمة واحدة تربطهم رابطة الإسلام التي صارت فوق كل الروابط الأخرى مقدمة عليها وأقوى منها.

**الثاني**: يحدد العلاقة مع المشركين، والواقع أن الوثيقة لم تفصل حقوقهم ربما لقلة عددهم ولكنها أعطتهم الامتيازات نفسها التي منحتها لباقي الطوائف.

**الثالث**: يحدد العلاقة مع اليهود، وكان عهدا على المسالمة وحرية التصرف ضمن حدود المصلحة العامة مع التسليم بالسلطة العليا لمحمد ﷺ والتعهد بالدفاع عن المدينة ضد قريش وعدم مناصرة أي مهاجم لها، أو عقد أي تحالف مع المشركين المحاربين دون إذن منه، مع احتفاظهم بتنظيم شؤونهم الداخلية[7].

وبعد تحرير الوثيقة وموافقة الجميع على مضمونها، وتعاهدهم على العمل بتنفيذها يكون النبي ﷺ قد حصر بيده السلطتين: الدينية والقضائية على المسلمين، والسلطتين: السياسية والدفاعية على أهل المدينة جميعا، وجعل من نفسه الحكم والمرجع لحل كافة النزاعات التي يمكن أن تنشأ من جراء تطبيق

---

7- محمد سهيل طقوش، التاريخ الإسلامي الوجيز

الصحيفة. وبهذا العمل التنظيمي الدقيق يكون ﷺ قد وضع الأسس السليمة لإقامة الدولة وأنهى مرحلة البناء الداخلي، وصار بإمكانه التفرغ للأمور الخارجية.

وهكذا يمكن تقسيم تاريخ الدولة الإسلامية الأولى لمرحلتين كما أسلفنا: مرحلة تشكل وهي التي تحدثنا عنها الآن، حيث أصبحت هنالك دولة بأركانها الثلاثة: أمة (ممثلة في المجتمع المدني بجميع أطيافه من: مسلمين، يهود، مشركين) وسلطة (وهي سلطة النبي ﷺ) ومجال (إقليم المدينة وضواحيها ممن عاهد أصحابها النبي ﷺ أو حالفوه).

ولا شك أن دولة صدر الإسلام هذه كانت قوية من ناحية الأسس ولكنها لا تزال في طور النشأة وستصارع كثيرا من أجل الاعتراف بها، فتصطدم بمراكز القوى المحيطة بها وتدخل بذلك مرحلة الصراع والتوسع الذي سيستمر لعدة قرون.

## ب- مرحلة التوسع:

مثلت الهجرة إلى المدينة تحديا لقريش وتهديدا لمصالحها الاقتصادية، وكان أكبر خطر واجهته دولة المسلمين الناشئة حديثا متمثلا في القرشيين الذين لم يكتفوا بإخراجهم من مكة وإبعادهم إلى المدينة وصدهم عن المسجد الحرام[8] بل عقدوا العزم على النيل منهم، وبعثوا إليهم يقولون: "لا يغرنكم أنكم أفلتُّمونا إلى يثرب، سنأتيكم فنستأصلكم ونبيد خضراءكم في عقر داركم" وأدرك المسلمون خطورة ذلك، حتى كان النبي ﷺ في بداية الأمر لا ينام إلا في حراسة حتى نزل قول الله تعالى ﴿والله يعصمك من الناس﴾

وحين نزل الإذن بالقتال كان من الحكمة أن يبسط المسلمون سيطرتهم على طريق قريش التجارية المؤدية من مكة إلى الشام، واختار النبي ﷺ لبسط هذه السيطرة خطيتين:

**الأولى:** عقد معاهدة الحلف أو عدم الاعتداء مع القبائل التي كانت مجاورة لهذا الطريق، والتي كانت تقطن ما بينه وبين المدينة[9]

---

[8]- كما جرى مع سعد بن معاذ الذي انطلق إلى مكة معتمراً فنزل على أمية بن خلف، وقال له انظر لي ساعة خلوة لعلي أن أطوف بالبيت، فخرج به قريباً من لقف النهار، فلقيهما أبو جهل فقال: يا أبا صفوان، من هذا الذي معك؟ فقال: هذا سعد، فقال له أبو جهل ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد آويتم الصباة، وزعمتم أنكم تنصرونهم، وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً، فقال له سعد ورفع صوته عليه أما والله لئن منعتني هذا لأمنعك ما هو أشد عليك منه، طريقك على أهل المدينة.

[9]- حيث عقد معاهدة حلف أو عدم اعتداء مع جهينة مثلا قبل بدء النشاط العسكري

**الثانية:** إرسال البعوث واحدة تلو الأخرى، وكانت تحركات عسكرية أشبه ما تكون بالدوريات الاستطلاعية، والهدف منها الاستكشاف والتعرف على الطرق المحيطة بالمدينة، والمسالك المؤدية إلى مكة، وعقد المعاهدات مع القبائل التي تقيم على هذه الطرق، وإشعار مشركي يثرب ويهودها وأعراب البادية الضاربين حولها بأن المسلمين أقوياء، وأنهم تخلصوا من ضعفهم القديم، وإنذار قريش علها تشعر بتفاقم الخطر على اقتصادها فتجنحَ إلى السَّلم، وتمتنعَ عن إرادة قتال المسلمين في عقر دارهم، وعن الصد عن سبيل اللّه، وتعذيب المستضعفين من المؤمنين في مكة، حتى يتمكن المسلمون من تبليغ رسالتهم وتمكين دعوتهم.

وبهذه الأنشطة العسكرية تبدأ مرحلة الغزوات والسرايا التي يمكن تسميتها بمرحلة التوسع وتقسيمها لمرحلتين:

الأولى مع بداية الأنشطة العسكرية حتى غزوة الخندق وصلح الحديبية، والثانية من صلح الحديبية حتى تبوك آخر غزوة خرج فيها النبي ﷺ قبل وفاته، حيث تركزت الأولى على مواجهة قريش حتى تم تحييد خطرها، واتخذت المرحلة الثانية طابعا أكثر شمولية بدعوة العرب جميعا وإخضاع المعاندين منهم حيث توالت انتصارات المسلمين بعد ذلك وبدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجا وكتب النبي ﷺ إلى الملوك المجاورين يدعوهم إلى الإسلام وتوسعت دعوته لتعم شبه الجزيرة العربية بوصولها حدود بزنطة ودخول بعض قرى الشام وقرى من أعمال عمان تحت سلطتها.

## الغزوات والسرايا الأولى:

نفذ المسلمون خلال الثمانية عشر شهرا الأولى بعد الهجرة، أربع غزوات وثلاث سرايا، وإن كانت نتائجها ضئيلة نسبيا إلا أنها جذبت الأعراب المجاورين للمدينة فوادعوا المسلمين وكانت مساعدتهم ضرورية لإنجاح حملاتهم العسكرية اللاحقة.

حصلت المواجهة العسكرية الأولى بين سرية للمسلمين من تسعة أشخاص بقيادة عبد الله بن جحش، وقافلة تجارية مكية يرافقها أربعة أشخاص بقيادة عمرو بن الحضرمي، في موضع يسمى نخلة ونتج عنها مقتل قائد القافلة وأسر اثنين من رفاقه وفرار الرابع.

والواقع أن ابن جحش بُعث لرصد القوافل التجارية ولم يؤمر بمهاجمتها لأن خروجه كان في رجب وهو من الأشهر الحرم، لكنه اجتهد في تقدير الموقف فهاجم القافلة وعاد بالغنائم والأسرى إلى المدينة، ورفض النبي ﷺ توزيع الغنيمة ولم يقبل نصيبه من الخمس إلا بعد نزول الآية[10] الكريمة التي بررت تصرف ابن جحش وأباحت مثل هذه الأعمال بعد ما تعرض له المسلمون على أيدي المكيين، غير أن ذلك لم يمنع قريشا من محاولة استغلال الحادثة لإثارة العرب ضد المسلمين بحجة سفكهم الدماء في الأشهر الحرم رغم أن النبي ﷺ لم يأمر بالقتال

---

10 – يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل

كما ذكرنا وأطلق الأسيرين وأعطى دية القتيل، وكانت المعركة الفاصلة بعد ذلك معركة بدر.

## معركة بدر:

بعد حادثة نخلة التي وقعت في الشهر الحرام اكتفى المشركون بتحريض العرب لإثارتهم ضد المسلمين ومهاجمة المناطق المجاورة للمدينة، وقاموا بتشديد الحراسة على قوافلهم التجارية، وفي السنة الثانية للهجرة خرج النبي ﷺ في 150 أو 200 من أصحابه لاعتراض عير لقريش كانت في طريقها من مكة إلى الشام، وهي قافلة كبيرة تحت قيادة أبي سفيان، غير أنها فاتته وهي التي سميت بغزوة العشيرة أو بدر الأولى.

وحين علم ﷺ بقدومها من الشام قرر وضع يده عليها، وانتدب أصحابه لذلك، ولم يعزم على أحد منهم واستطاع تجنيد ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا، تمكنوا من توفير سبعين بعيرا وجوادين لاستخدامهم في الحلمة التي انطلقت من المدينة بعد ثمان ليال مضت من رمضان، غير أن أبا سفيان علم بخروج المسلمين فتصرف على محورين:

**الأول:** أرسل إلى أهل مكة يستنفرهم ويطلب منهم النجدة.

**الثاني:** تغير طريق القافلة.

استجابت قريش لنداء أبي سفيان، وأرادت إلقاء الرعب في قلوب المسلمين، ومنعهم من مهاجمة القوافل التجارية القرشية في المستقبل، فأرسلت قوة عسكرية

تضم تسعَمائة وخمسين مقاتلا بقيادة أبي جهل، والتقى الجمعان عند وادي بدر على مسافة عشرين مِيلا جنوبي المدينة في 17 من رمضان، فانتصر المسلمون في المعركة وخسرتها قريش التي فقدت سبعين قتيلا وأسر منها سبعون.

شكل هذا الانتصار حجر الزاوية في التاريخ المبكر للإسلام إذ كان أول صدام جدّي بين المسلمين وقريش انتصر فيه المسلمون انتصارا واضحا على الرغم من قلة عددهم وعتادهم، وكان من نتائج هذه المعركة:

- حقق المسلمون بهذا الانتصار الغاية الاقتصادية بفرض الحصار على قريش التي لم يعد بإمكانها المخاطرة بعبور طريق الشمال ولجأت لاتخاذ طريق جديد يمر عبر مضارب بني سُليم الذين حذرهم النبي ﷺ من مساعدة قريش وأنذرهم قبل أن يغزوهم في مضاربهم كما غزى قبيلة غطفان
- مثلت الهزيمة صدمة لقريش وخسارة حسية ومعنوية كبيرة لما فقدت في المعركة من أشرافها، وتسلم أبو سفيان زمام الأمور في مكة فاتخذ قرارا بمنع الحداد مدة من الزمن كي لا يتمتع المسلمون بحلاوة النصر ونذر نذره المعروف[11] بأن يغزو المسلمين.
- قاد أبو سفيان حملة من مائتي فارس إلى المدينة سعيا لإعادة هيبة قريش والانتقام من المسلمين، فوصل ضواحي المدينة واستضافه سيد بني النضير، وعقد تحالفا مع بني قينقاع، فنقضوا بذلك العهد مع المسلمين وكانوا يدسون لهم الدسائس وقد صبر عليهم النبي ﷺ حتى اعتدوا على امرأة وقتلوا رجلا من المسلمين، فجمع أصحابه وحاصرهم مدة 15 يوما حتى

---

[11]– نذر ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو المسلمين

استسلموا فأخرجهم من المدينة واستقروا في خيبر وكان عددهم 700 مقاتل.

ولم يكن لهذا التحرك من نتائج غير انكشاف بني قينقاع الذين كانوا في معاهدة مع المسلمين، لتستمر قريش في التحشيد والإعداد للمعركة القادمة التي ستعرف بأحد.

## غزوة أحد:

كانت غزوة أحد ردا من قريش على الهزيمة الكبرى التي حلت بها في بدر فقاد أبو سفيان 3000 مقاتل من قريش والأحابيش وعرب كنانة وتهامة، خرج بهم من مكة يريد المدينة، واصطحب معه الظعَن لإثارة حماس المقاتلين ومنعهم من الفرار، حتى بلغ أحُدا فخيم، وأعد خطة عسكرية للقضاء على قوة المسلمين، محاولا الاستفادة من علاقاته السرية بخصوص النبي ﷺ في المدينة.

أما النبي ﷺ فقد تلقى رسالة من عمه العباس في مكة يخبره بخروج قريش، فاجتمع بأصحابه للتشاور فرأى فريق منهم الخروج إلى العدو لملاقاته خارج المدينة وكانوا الأكثرية، منهمُ الشباب المتحمسون للقتال، وبعض من لم يشهدوا بدرا، بينما رأى فريق آخر ومنهم بعض كبار الصحابة البقاء في المدينة للاستفادة من تحصيناتها، وكان هذا أيضا رأي عبد الله بن أبيْ كبير المنافقين، ورأي النبي ﷺ غير أنه نزل على رأي الأكثرية، فخرج بالمسلمين وحثهم على الصبر، ونزل بهم أقصى الوادي محتمين بجبل أحد وكان عددهم 700 مائة بعد أن انسحب

عنهم رأس المنافقين عبد الله بن أبيْ بأتباعه البالغ عددهم 300 مائة مقاتل وفق خطة محكمة لأضعاف المسلمين.

مثلت خيالة قريش مصدر قلق للمسلمين فاحتاطوا لذلك بوضع خمسين من الرماة في نقاط على ظهر الجبل، وقد أمرهم النبي ﷺ بعدم مغادرة مواقعهم مهما كانت نتائج المعركة.

التقى الجمعان وجرت بينهما معركة قاسية كاد المسلمون أن يحققوا النصر المؤزر فيها، لولا التغير المفاجئ الذي أحدثه انسحاب الرماة للمشاركة في جمع الغنائم مخالفين بذلك أوامر النبي ﷺ الأمر الذي استغله خالد ابن الوليد وهو إذ ذاك قائد في جيش المشركين، فحرك فرسانه للالتفاف على مؤخرة المسلمين وهم عاكفون على جمع الغنائم، فاضطربت صفوفهم واختلف نظامهم، وكرت عليهم قريش فخاضت المعركة في ظروف مغايرة، وكادت تنال من رسول الله ﷺ، واستشهد سبعون من الصحابة، كان من بينهم حمزةُ عم النبي ومصعبُ بن عمير حامل لواء المسلمين، وغيرهم.

***نتائج المعركة:***

- أدرك أبو سفيان ومن معه من زعماء قريش ما سيواجههم من الحرج في مكة لأنهم بذلوا جهودا كبيرة ولم يستطيعوا كسر شوكة المسلمين رغم انتصارهم الجزئي، وهذا الحرج يُمكن رفعه فقط بإعداد جيش أقوى لمواجهة المسلمين في جولة أخرى وهو ما لا يتأتى إلا بالحصول على مساعدة

بعض القبائل الضارية حول المدينة، فكرسوا جهودهم لذلك وجنوا ثمارها في معركة الخندق التي ستأتي بعد ذلك.

- استخفّت بعض القبائل بقوة المسلمين وتجرأ بعضهم بالاعتداء عليهم، كما وقع من الغدر في يوم الرجيع، ويوم بئر معونة، وكانت استراتيجية النبي ﷺ خلال هذه المرحلة تقوم على مواجهة استباقية لكل الحركات المعادية.
- محاولة اغتيال النبي ﷺ حيث بلغ الاستخفاف بالمسلمين أن أقدم بنو النضير على تدبير مؤامرة للتخلص من النبي ﷺ فأنذرهم بالجلاء عن المدينة، ورفضوا فحاصرهم حتى نزلوا على شروطه، فعرض عليهم التخلي عن أسلحتهم ومغادرة المدينة، فخرجوا إلى خيبر وسار بعضهم إلى الشام.

وكانت هذه الأحداث كلُّها ضمن نتائج وتداعيات معركة أُحُد، وإرهاصات لمواجهة قادمة ستحاصِر فيها قريش وأحلافُها المدينة وستعرف بغزوة الخندق، والأحزاب أيضا.

## غزوة الخندق:

بدأ الصدام بين المسلمين واليهود مع بني قينقاع الذين كانوا أولَ من نقض العهد بعد بدر، ولم ينته بطرد بني النضير، الذين حاولوا اغتيال النبي ﷺ كما قدمنا، واستمروا في التآمر على المسلمين من خيبر، حيث نسقوا مع قريش، وقاموا بدور كبير في إنشاء الحلف الذي حاصر المدينة بعد ذلك حين استطاعوا استمالة غطفان.

وفي السنة الـ 5 هـ خرج أبو سفيان بعشرة آلاف مقاتل، من أهل مكة ومن تحالف معهم من أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، وكان همهم الوحيدُ متمثلا في القضاء على قوة محمد ﷺ وتشتيت أتباعه، فعسكروا خارج المدينة بانتظار خروج المسلمين إليهم، غير أن النبي ﷺ اختار خطة مغايرة هذه المرة، فاتخذ موقعا دفاعيا، وحفر الخندق في الأماكن التي يمكن أن تتعرض منها المدينة للهجوم.

وبعد أربعين يوما من الحصار فشلت حملة الأحزاب ويمكن إرجاع ذلك الفشل لعدة أسباب:

- عوامل موضوعية حيث استطاع المسلمون إفشال الاختراق الداخلي الجزئي الذي تمكن منه المشركون من خلال تحالفهم مع بني قريظة الذين نقضوا العهد، وأبرموا اتفاقا مع أبي سفيان تضمّن السماح له بالدخول بجيشه عبر حيهم. وقد قام نعيم بن مسعود الأشجعي بدور بارز في إفشال تلك الخطة حين استطاع إحداث أزمة ثقة بين الطرفين بالتشكيك لكل منهما في نوايا الآخر ضمن خطة محكمة، أفشلت ذلك التحالف، وكان نعيمٌ أسلم قبل ذلك وكتم إيمانه.
- أما العوامل الطبيعية فقد كانت قاسية على الأحزاب أيضا حيث هبت رياح شديدة وتساقطت أمطار غزيرة؛ مما فت في عضدهم، وقضى على معنوياتهم، فغادروا المكان متفرقين ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر﴾.

## نتائج المعركة:

- فشلت قريش في القضاء على خطر المسلمين على الرغم مما بذلت من جهود، وتراجع نفوذها لصالح النبي ﷺ وأصحابه.
- تابع النبي ﷺ سياسة تنفيذ الغزوات والغارات على قوافل قريش، واتسعت سلطته شمالا حيث أقام التحالفات مع بعض القبائل الضاربة هناك لتقوية الحصار الذي فرضه على تجارة مكة.
- توقفت تجارة مكة مع بلاد الشام وفقد القرشيون بذلك واحدا من أهم مواردهم الاقتصادية، وستكون التداعيات الأكبر، على أصحاب الثروة والمكانة والنفوذ الذين انحسرت مكانتهم وتراجعت هيبتهم بشكل عام بعد هزيمة الأحزاب.
- أتاحت هزيمة قريش وانكفائها على نفسها فرصة التفرغ للقضاء على العدو الداخلي الأخطر، متمثلا في بني قريظة الذين نقضوا العهد وتآمروا على المسلمين في أحلك الظروف، فحاصرهم النبي ﷺ وأصحابه مدة 25 يوما حتى نزلوا على حكم حليفهم السابق سعد بن معاذ زعيم الخزرج، فحكم فيهم بقتل الرجال وتقسيم الأموال وسبي الذراري والنساء، ورضي النبي ﷺ بهذا الحكم وأمر بتنفيذه.

ويمكن القول بأن خطر قريش بدأ يتراجع بعد هزيمة الأحزاب، وانتقلت من موقع الهجوم إلى موقع الدفاع، فستجنح إلى السّلم وتركن إلى الاعتراف بالدولة الجديدة، عند الجولة القادمة من الصراع كما يتضح من بنود صلح

الحديبية، وتستلم في الجولة التي بعدها مباشرة، وذلك بعد أن نقضت العهد، لتُفتح مكة دون كبير عناء.

فكانت هذه المرحلة فاصلة بين مرحلة الغزوات والسرايا الأولى، ومرحلة ما بعد حصار المدينة

## *مرحلة ما بعد حصار المدينة:*

تقوم أهمية المرحلة الممتدة بين نهاية حصار المدينة وصلح الحديبية، على ظهور اتجاهات جديدة في سياسة النبي ﷺ فقد كرس جهده من قبل للنضال ضد مكة، للحد من نفوذ المكيين وتحجيم خطرهم، ومن الواضح أن أهدافه اتسعت بعد انتهاء حصار المدينة، فسعى لدعوة العرب جميعا وإخضاع المعاندين منهم، ثم كاتب الأمراءَ والملوكَ المجاورين بعد ذلك.

والواقع أن جزءا من الحوادث التي وقعت بين غزوة الأحزاب وصلح الحديبية جاءت نتيجة لفشل قريش في حصار المدينة. فحدث أولا عقاب بني قريظة كما أشرنا سابقا، ثم هاجم المسلمون مضارب بني غطفان، وأرسل النبي ﷺ عدة حملات صغيرة ضد قبائل أخرى متحالفة مع قريش كأسد وثعلبة وبني بكر وبني كلاب وبني لحيان، بهدف إنذارها بأن لا تحاول مهاجمة المدينة من جهة، أو تجدد التحالف مع مكة من جهة أخرى. وجاء صلح الحديبية بعد ذلك في الوقت المناسب وأجهض تحالفا جديدا كان سيمثل خطرا كبيرا على دولة المدينة.

## صلح الحديبية:

كانت خيبر ملاذا لليهود الهاربين من المدينة بعد نقضهم للعهود مع المسلمين، وحين تحالف يهودها مع قريش مكة صاروا يمثلون خطرا على دولة المدينة، ولما لم يستطع المسلمون إفشال ذلك التحالف عسكريا استطاعوا إفشاله سياسيا عن طريق التفاهم مع أحد أهم الطرفين المتحالفين ضدهم.

ففي السنة الـ 6 هـ، أعلن النبي ﷺ أنه يريد العُمرة وساق معه الهدي، غير أن القرشيين لم يطمئنوا لذلك وتجهزوا للقتال، ونزل المسلمون بالحُديبية على بعد مسيرة يوم إلى الغرب من مكة، وجرت مفاوضات بين الطرفين عرض خلالها النبي ﷺ عدم التعرض لقوافلهم التجارية مقابل السماح له بأداء شعائر العمرة.

وافق القرشيون على العرض بشرط مضي عام من السلم قبل تنفيذه، فقبل النبي ﷺ وتم عقد الاتفاق على الأسس التالية:

1. تضع الحرب أوزارها بين الفريقين مدة عشر سنوات.
2. يعود المسلمون من مكة ذاك العام دون أداء العمرة على أن يدخلوها في العام التالي.
3. يرُد النبي ﷺ من يأتيه من قريش مسلما دون إذن وليّه.
4. لا تُلزم قريش برد من يأتي إليها من المسلمين.
5. للقبائل حرية الدخول في عهد الطرف الذي تختاره.

لم يرق هذا الاتفاق أو بعض بنوده لبعض أصحابه ﷺ كعمر بن الخطاب، وكان النبي ﷺ يعالج ذلك بحكمة ويطمئن عمر قائلا: (أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يضيعني).

والواقع أن هذا الصلح كان لصالح المسلمين، فهو يدل على ضعف قريش وتراجعِ قوتها، واعترافٌ منها بالمساواة بينها وبين المسلمين، وتنازل مهم يسمح للقبائل بفسخ تحالفها مع مكة والانضمام إلى صفوف المسلمين كما فعلت خزاعة. وحُرّية الدعوة أصلا كانت مبعث الخلاف مع قريش ولا شك أن هذا الاتفاق أتاح حرية دعوة الأفراد والمجموعات والقبائل.

فكانت المعاهدة إذن تخدم سياسة المسلمين ودعوتَهم على المديْين القريب والبعيد، حتى عدها بعض المؤرخين فتحا عظيما[12].

وقد رأينا أن النبي ﷺ كاتب الملوك والأمراء المجاورين، بعد هذه المعاهدة مباشرة، ما يعني أن الدولة الجديد باتت تتطلع لتوسيع دائرة الخطاب والنفوذ ضمن حدود أوسع ستكتسحها خلال مراحل أخرى لاحقة.

## كتب النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء

أتاح صلح الحديبية للمسلمين حرية التحرك، ولما كانت دعوة النبي ﷺ للناس كافة فإنه كتب إلى الملوك والأمراء المجاورين يدعوهم إلى الدخول في

12– ابن هشام

الإسلام، كهرقل إمبراطور الروم، وكسرى فارس، والمقوقس في مصر، والنجاشي ملك الحبشة، وغيرهم.

وقد تفاوتت ردود هؤلاء، فمنهم من أحسن الرد، كالنجاشي والمقوقس، ومنهم أساء الرد كملك غسان وكسرى فارس.

وجاءت هذه الرسائل كلُّها بعد صلح الحديبية، وهو صلح لم يَرُقْ ليهود خيبر الذين لم يأخذوا العبرة من خضوع قريش، فجهزوا للإغارة على المدينة وكان ذلك سببا كافيا لوقوع غزوة خيبر.

## غزوة خيبر

بتحريض من زعماء بني النضير برز يهود خيبر مدفوعين برغبة الثأر من النبي ﷺ فقرروا الإغارة على المدينة، وكان ذلك السبب كافيا لمهاجمة خيبر الواقعة على بعد ستة أيام إلى الشمال الشرقي من المدينة، فخرج النبي ﷺ وأصحابه بسرعة وسرية تامة وحطوا بها في محرم من السنة الـ7 هـ، دون أن يشعر اليهود الذين فوجئوا بحصار مطبق من المسلمين.

كانت خيبر تحتوي على عدد من الحصون التي أقيم كثير منها على رؤوس الجبال فهاجمها المسلمون حصنا بعد آخر، حتى استسلم أهلها واتفقوا مع النبي ﷺ على إبقائهم في أراضيهم وزراعتها شرط إعطاء نصف محصولها للمسلمين.

وبذلك كُسرت شوكة اليهود وكانت غزوة مؤتة بعد ذلك التي جاءت كرد على إقدام الغساسنة على قتل رسول النبي ﷺ إليهم.

## غزوة مؤتة

كما قدمنا فقد اهتم النبي ﷺ اهتماما كبيرا بطريق الشمال التجارية منذ احتكاكه بقريش وذلك لمضايقة تجارتها والانفتاح على القبائل الضاربة على هذا الطريق، لموقعها الجغرافي المهم في سياسة الحصار المفروض على قريش من جهة، وهدفه في توحيد العرب والتوسع شمالا خارج الجزيرة العربية من جهة أخرى.

وتدل سرية مؤتة على هذا التوجه.

أما السبب المباشر لها فهو إقدام شرحبيل بن عمرو الغساني على قتل مبعوث رسول الله ﷺ إلى الغساسنة، وكان رد النبي ﷺ تجهيزُ جيش من 3000 آلاف مقاتل بقيادة زيد بن حارثة، التقى بجيش بيزنطي يضم عددا من القبائل العربية في إحدى قرى البلقاء تسمى مؤتة وذلك في العام الـ 8 هـ.

لم يكن النصر حليف المسلمين في هذه المعركة وعاد خالد بن الوليد بالجيش إلى المدينة بعد مقتل 3 من قادته هم: زيد ابن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، وعلى الرغم من ذلك فإن الهزيمة لم تنل من عزيمة المسلمين بعد أن كانت دعوتهم آخذة في الانتشار، والقبائلُ تفدُ إليهم في المدينة تعلن دخولها الإسلام.

وفي نفس العام أخل المكيون بصلح الحديبية بتحالفهم مع بني بكر ضد خزاعة حلفاء النبي ﷺ الذين استنجدوا به فجهز جيشه وتوجه لمكة فكان فتحها.

## فتح مكة:

شعر المكيون بعد صلح الحديبية أن مدينتهم آخذة في الزوال، وانقسموا إلى فريقين: فريق من الشباب أصابهم الإحباط بعد أن أدركوا أن لا مستقبل لهم في مكة بعد تزايد قوة المسلمين وتراجع قوة المكيين. وفريق آخر يضم شيوخ مكة وأصحاب المصالح فيها، وقد أرادوا الاستمرار في النزاع مع المسلمين

وحدث في العام الثامن الهجري أن أخل القرشيون بشروط الصلح حين ساعدوا حلفاءهم من بني بكر بالسلاح ضد بني خزاعة حلفاءِ النبي ﷺ ففجرت هذه القضية الصراع من جديد. وخرج النبي ﷺ من المدينة في رمضان من السنة الثامنة للهجرة، على رأس عشرة آلاف مقاتل متوجها إلى مكة، وتمكن من دخولها سلما من أربعة محاور، باستثناء ما صادف فرقة خالد بن الوليد من مقاومة سرعان ما قضى عليها.

ولما دخل النبي ﷺ طاف بالبيت سبعا وأمر بإزالة الأصنام، ثم خطب خطبته المشهورة معلنا العفو العام عن أهل مكة، باستثناء عدد من الأفراد نظرا لجرائمهم الكبيرة[13]، وأقام بها 15 يوما أو 20، رتب خلالها أمورها الإدارية، وحطم الأصنام وألغى كافة الامتيازات التي كانت تتمتع بها قريش.

---

13- أهدر رسول الله ﷺ يومئذ دماء تسعة نفر من أكابر المجرمين وأمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، وهم عبد العزى بن خطل، وعبد الله بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، والحارث بن نفيل بن وهب،

غير أن هذا الفتح العظيم لم يُخمد الصـــراع حيث حاولت هوازن وثقيف التصدي للمسلمين من جديد وكان ذلك السبب المباشر لغزوتي حنين والطائف.

## غزوة حنين

حاولت هوازن ملأ الفراغ الناتج عن ضعف سلطة القرشيين بمكة، ورأت في سيطرة المسلمين عليها تهديدا مباشرا لها، فحشدت الجيوش، وزحفت باتجاهها وناصرتها ثقيف التي راودها الأمل في الاستقلال عن قريش.

أما النبي ﷺ فقد خرج إليهم من مكة في عشـــرة آلاف مقاتل فالتقى الجمعان بواد حنين ودارت معركة قاسـية لاح النصـــر في بدايتها لهوازن، قبل أن يعيد المسلمون تنظيم صفوفهم ويحرزوا النصر النهائي في المعركة، أما ثقيف فقد تراجعت إلى الطائف للاحتماء بمدينتها، غير أن المســـلمين لم يكتفوا بذلك وجهزوا لغزو الطائف.

## غزوة الطائف

بعد انتصـار المسلمين في حنين توجه بهم النبي ﷺ إلى الطائف وحاصروها مدة 15 يوما، ثم فكوا الحصـــار عنها لدخول الأشـــهر الحرم، وانصـــرفوا وهم عازمون على العودة إليها بعد انقضاء الأشهر الحرم، لكن الثقفيين بعد أن أدركوا عجزهم عن التصدي للمسلمين واستحالة الصمود في مواجهتهم، خاصة وأن

---

ومقيس بن صـبابة، وهبار بن الأسـود، وقينتان كانتا لابن خطل، كانتا تغنيان بهجو النبي ﷺ، وسـارة مولاة لبعض بني عبد المطلب، وهي التي وجد معها كتاب حاطب.

معظم قبائل الجزيرة العربية دخلت في الاسلام، أرسلوا وفدا إلى النبي ﷺ يعرضون عليه دخولهم في الإسلام، لتنتهي المشكلة، وكانت غزوة تبوك، بعدها آخر غزوة خرج فيها النبي ﷺ.

## غزوة تبوك

كانت تبوك آخر الغزوات التي خرج فيها النبي ﷺ وكانت دعوة للقبائل الضاربة في الشمال على الحدود البيزنطية من أجل دخول الإسلام، وردا مناسبا على الهزيمة التي تعرض لها المسلمون سابقا في غزوة مؤتة، وجاءت في الوقت المناسب بعد أن علموا بتجميع قوات من الروم على حدود فلسطين لقتالهم، فجهز النبي ﷺ جيشا سمي جيش العسرة لأن التأهب والمسير كان في وقت عسرة الناس وشدة الحرب والجدب، فأنفق الموسرون ما يتجهز به المعسرون.

خرج النبي ﷺ في شهر رجب من السنة التـــ 9هـ، على رأس الجيش حتى وصل إلى تبوك، فأقام فيها أياما وصالحه أهلها، واستقبل فيها وفود بعض القبائل القادمة من أيلة وأذرح بأطراف الشام، وجرباء من أعمال عمان، وبعث خالد بن الوليد إلى أكيدر صاحب دومة الجندل فأسره وفتح قريته. أما الروم فقد انسحبوا بعد وصول المسلمين إلى تبوك، مفضلين قتالهم قريبا من قواعدهم، بعيدا عن الصحراء التي هي مجال العمل العسكري للعرب.

عاد المسلمون إلى المدينة بعد انسحاب الروم من تبوك واكتفوا بفرض سلطانهم الاسمي على المناطق المجاورة، وكانت هذه آخر غَزوة خرج فيها النبي ﷺ كما قدمنا. وذلك قبل وفاته في ربيع من السنة الحادية عشرة للهجرة (سنة 11هـ)

## وفاة النبي ﷺ

كانت وفاة النبي ﷺ ختام هذه المرحلة، وجاءت بعد حجته الأخيرة في السنة العاشرة للهجرة، حيث خرج إلى مكة لأداء مناسك الحج على رأس أكثر من مائة ألف من المسلمين، وألقى عند جبل عرفات خطبته المشهورة بخطبة الوَداع التي حدد فيها قواعد الإسلام وأسسه ونظامه، ونادى بالمساواة بين الناس، ثم عاد إلى المدينة. (محمد سهيل طقوش، م، س)

ولم تكد تمضي على هذه الحجة ثلاثة أشهر حتى مرض ﷺ وتوفي في يوم الاثنين ربيع الاول من العام لـــ 11هـ وهو في الثالثة والستين من عمره، وبعد ثلاثة وعشرين من عمر دعوته التي استطاع من خلالها إقامة الوحدة العقائدية والسياسية، بعد تفكيك بنيات المجتمع القائمة وإعادة صياغتها على أسس أخرى جديدة من التآخي والتآزر والتعاضد والإيثار، ووضع الخطوط العريضة لتوحيد الجزيرة العربية وأقام الدولة التي توسعت خلال فترة قياسية من عهده، لتعم الآفاق خلال مراحل لاحقة بعد وفاته.

وقد أحدثت هذه الفاجعة صدمة كبيرة للمسلمين ونجمت عنها هزات ارتدادية عنيفة هددت كيان الدولة وشكلت خطرا على الأمة ومستقبل الدعوة. وكانت نهاية لعهد الدولة الإسلامية الأولى، وإيذانا بقيام دولة الخلافة، التي استوت على سوقها بعد إخماد حروب الردة في بداية عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وإلى هنا ينتهي الفصل الأول من تاريخ الإسلام ونتوقف بانتظار سانحة أخرى.